حاضر ماض؟

تستطيع التنبؤات الإحاطة بالنظم وحسب وتوجد
حدود ملكة التنبؤ حيث تقلع النظم عن الوجود
ولا يبقى غير أحداث تفتقر إلى الترابط

بانايوتيس كوندوليسيس،
السياسة الكونية بعد الحرب الباردة

برلين في 14 آذار 2001: «كان نيدرماير سيتأقلم مع الوضع هنا، فالناس يتحدثون التركية والروسية في قطارات الأنفاق. وينتسب الأكراد والأكرانيون وطلبة شرق أوروبا والتجار القوقازيون إلى هذه المدينة شأنهم في ذلك شأن الفارين من أفغانستان. وهناك في شارع جيورجن، حيث كان معهده، حفرة باقية، بينما تظهر على البيوت المجاورة ثقوب أحدثتها القذائف، وآثار الحرب.

تنتصب في متحف الشرق الادنى آلهة ـ صقور مركبة من قطع صغيرة: إنها تبدو كعمل تشكيلي معاصر، إلا أن أصلها من أنقاض قنابل متحف تل حلف الذي دمر عام 1943، وموّله أول مرة ماكس فون أوبنهايم من جيبه الخاص، ويعاد تركيب بقاياه اليوم وسط برلين، بعد أن بقيت مخبأة خلال عقود في قبو متحف الجزيرة. ويقال إن بوابة القصر التي يعاد بناؤها في فناء متحف بيرجامون ستوضع في مكان جديد خلال عشرة إلى خمسة عشرة عاما.

وينتصب فوق سطح المتحف الإسلامي لوح نقش مئذنة المصلى في حيرات، الذي جلبه نيدرماير معه عام 1922 بمعونة البلاشفة. يقدم محافظ المتحف جريدة اليوم إلى الزائر، كي يشاهد صورتين ملونتين على صفحة العناوين الرئيسة: «طالبان تنسف في باميان أكبر تماثيل لبوذا في العالم».

واشنطن 11 أيلول 2001: «إنه صباح بهيج انكسرت فيه لزوجة أشهر الصيف، وغدت ساعات صباحه الأولى باردة وطازجة، بينما ترتفع السماء الزرقاء المضيئة فوق معالم العاصمة الأميركية. فجأة، حوالي الساعة التاسعة، يأتي النبأ المرعب الأول. تقول ال CNN إن طائرة ثانية ارتطمت بمركز التجارة الدولي، وانقضت ثالثة على البنتاغون. وتبدو الغيوم السوداء وهي تتصاعد إلى عنان السماء فيما وراء البوتوماك. وينهار البرجان في نيويورك. إنها صور لا يمكن تصديقها. تتأكد بعد الظهر أولى الشكوك: «إن من هاجم نيويورك وواشنطن هي شبكة أسامة بن لادن في أفغانستان».

عاش إرهابيو الحادي عشر من أيلول حياة مزدوجة، وعملوا منذ سنوات في الخفاء داخل الديموقراطيات الغربية الليبرالية، لأن شبكاتهم تأخذ بتقاليد الجمعيات السرية الإسلامية، وتستخدم أدوات الحرب غير المتوازية، وتمارس فنون التقية القديمة جدا. لقد التقت خيوط ما حدث في أفغانستان، حيث كان نيدرماير قد مد طرق ودروب حياته اللاحقة. وتستحق بغداد بدورها بعض الاهتمام.

زمن ما بعد الحرب

جاء في تشرين الأول من عام 1946 رجلان غير معروفين إلى منطقة جرافيلفينج على أبواب ميونيخ، التي كانت لا تزال ريفية آنذاك. لقد أرادا الحديث إلى السيدة فون نيدرماير، التي كانت في ميونيخ، لكنها لم تكن حاضرة، وكان لا بد أن تقدم إحدى الجارات المعلومات المطلوبة. أشار مجرى الحديث إلى أن السيدين كانا أميركيين ويعرفان سيرة الجنرال

المختفي. عندما عادت السيدة نيدرماير من ميونيخ مساء، لم تعرف ما قد يكون للزيارة من معنى. لكن جارتها اعتقدت أن السيدين كانا من وكالة الاستخبارات الأميركية[1].

بعد شهرين، في 12 كانون الأول 1946، كتبت السيدة نيدرماير بمزاج حانق إلى العقيد السابق فالتر هانسن، الذي قاد أركان نيدرماير أثناء التراجع في الغرب، وساعده خلال التحقيقات الأولى للقضاء العسكري. كان هانسن منشغلا، مثل ضباط نيدرماير الآخرين، باختفاء الجنرال ومصيره الغامض. أعلمت السيدة هانسن في رسالتها قبل الميلاد بزيارة الجنرال كوسترينج، الذي جاء في تشرين الثاني عام 1946 إلى جرافلفينج. وكان الأميركيون قد نقلوه بالطائرة إلى واشنطن، واستجوبوه بطريقة منهجية حول التعاون الألماني / السوفييتي بعد الحرب العالمية الأولى. وحين أخبرهم أن نيدرماير هو أفضل خبير في هذا المجال، قالوا له: «لكننا لن نستطيع للأسف سؤاله، لأنه ميت».

اعتقد الأميركيون أن نيدرماير قتل في تورغاو، ثم علموا من أقوال فريتشه أنهم أخطؤوا، وأن نيدرماير لا يزال حيا. هكذا ظهر الأميركيون ليس فقط في جرافلفينج، بل كذلك في باساو لدى فريتز نيدرماير، مما أقلق السيدة فون نيدرماير وجعلها لا تعرف ما يحجب عليها عمله: «إنني أفكر طيلة الوقت بالذهاب إلى الاستخبارات الأميركية، فهل لذلك من جدوى!. إذا كان زوجي حيا وكان الأميركيون يبدون اهتمامهم به تجاه الروس، فإن هذا سيثير شكوكهم وسيجعل مصيره سيئا إلى درجة لا تصدق».

كان كوستريسنج قد خضع في النصف الثاني من عام 1945 في معسكر «آلاسكا» الأميركي الخاص، شأن مدنيين وعسكريين ألمان آخرين،

1. انظر رسالة السيدة نيدرماير إلى فالتر هانسن بتاريخ 21 كانون الأول عام 1946. الأرشيف البافاري ـ الأرشيف العسكري، رقم 304/ 17.

لاستجوابات مكثفة وتفصيلية، قبل أن ينقل جوا إلى واشنطن من أجل المزيد من التحقيقات. وقد انصبت أسئلة الأميركيين على الماضي الأقرب، لكن أجوبة الألمان كانت مهمة للمستقبل أيضا، بما أن المحققين الأميركيين كانوا معنيين باستطلاع الجيش الأحمر، ومعرفة تنظيمه الحربي وتسليحه وطريقة قتاله، وفهم طرق تدريب الجندي السوفييتي وقيمته القتالية، وكشف أسس نظام النقل والإمداد في الاتحاد السوفييتي.

ألقى الألمان بين 1941 و 1945 نظرات عميقة داخل الجيش والمجتمع والاقتصاد السوفييتي، وساعدهم على ذلك أن أسرى سوفييت كثيرين بينهم ضباط وأخصائيون كبار، تحدثوا طواعية وأدلوا بمعلومات قيمة، وأن عددا كبيرا من جنود وضباط الجيش الأحمر قاتلوا إلى جانب ألمانيا. والآن، تعاون الضباط الألمان مع الأميركيين ووضعوا معارفهم وخبرتهم تحت تصرفهم، بعد أن عاشوا تحولا فكريا جعلهم ينضمون إلى الغرب، عقب دخول السوفييت إلى أقاليم ألمانيا الشرقية، وعمليات الطرد والتدمير والاغتصابات الجماعية التي قاموا بها هناك[2].

إلى هذا، فتح التعاون مع الولايات المتحدة سبل خروج ألمانيا من كارثة الرايش الثالث السياسية والعسكرية والأخلاقية. لم يقتصر إدراك هذه الحقيقة على كوستارينج وحده، بل فهمها جميع خبراء الشرق من أمثال العقيد هاينس داكو هيره، الذي جاء من استخبارات الجيش، وتحديدا من شعبة الجيوش الأجنبية شرق، التي كانت دوما على علاقة وثيقة مع الجنرال كوستارينج، عبرت عن نفسها من خلال تعيين هيرره رئيس الأركان لديه. كان الجنرال والعقيد يمتلكان على الأرجح أفضل معرفة في أوروبا المراقبة أميركيا عن وحدات الجيش الألماني التركية والأجنبية. وقد صار هيرره في فترة تالية أحد أقرب معاوني الجنرال راينهارد جيهلن، الرئيس الأول

2. انظر فيلهلم ريتر فون شرام: الاستخبارات في أوروبا 1937 ـ 1945، ميونيخ 1980.

لاستخبارات ألمانيا الاتحادية، الذي اتخذ من بولاخ جنوب ميونيخ مقرا رئيسا له. أقام هيرره علاقات وثيقة مع الاستخبارات الأميركية منذ إقامته الاولى في واشنطن، حين وضع حجر أساس التعاون السياسي والأمني بين ألمانيا وأميركا، قبل سنوات من تأسيس جمهورية ألمانيا الاتحادية.

أنجب التعاون ثمارا بينها عرض أدبي لسياسة ألمانيا الكارثية في الشرق خلال الحرب العالمية الثانية، عنوانه: «إن كنت تريد أن تهلك...»[3]، الذي بدأ تاريخه في ميونيخ ذات مساء خريفي من عام 1950. كانت وكالة الاستخبارات المركزية تريد أن تعرف أكبر قدر من المعلومات عن الجهود الألمانية، التي بذلت من أجل تعبئة الأسرى السوفييت ضد الاتحاد السوفييتي. حتى الجهات الرسمية الأميركية، التي كانت مسؤولة عن تسليم الوحدات الشرقية إلى ستالين، اهتمت الآن بالتجارب الألمانية في ظل علامات الحرب الباردة الأولى. فهل سيقدم الضباط الألمان السابقون معرفتهم كلها إلى الأميركيين بالذات، أم انه يمكن إيجاد طريق آخر؟.

انسحب الصحفي الألماني هاينس ثورفالد، الناشط الإعلامي خلال الرايش الثالث، إلى بيت ريفي منعزل قرب ميتنفالد في شتاء 1950/ 1951. وكان قد حقق نجاحات صحفية كبرى بفضل الكتب التي وضعها في نهاية الأربعينات عن طرد الألمان من مناطق شرق نهري الأودر والنايسه، جعلته محط ثقة أوساط الضباط السابقين المحافظين والقوميي النزعة. انصرف ثورفالد من جديد إلى العمل تعاونه سكرتيرتان تتناوبان على إنجاز مخطوط ما فتأ يزداد ضخامة، بينما كانت سيارة أوبل تحضر في فواصل زمنية منتظمة إلى البيت الغارق في الثلج شهودا على سياسة ألمانيا في الشرق بين 1941 و1944. بعد الأحاديث، كان الزوار يرجعون سرا إلى ميونيخ، ليرجعوا من هناك إلى المناطق التي أتوا منها، وكانوا يأتون من ألمانيا كلها.

3. يورجن ثورفالد: عندما يريدون أن يهلكوا. تقرير عن خيانة كبرى، شتوتجارت 1952.

وجدت يوميات وذكريات العقيد هانسن حول نيدرماير مكانا في كتاب ثورفالد. وكان مصير نيدرماير غير معروف بعد في عام 1945، عندما كتب أحد مواطني ميونيخ من معارف الجنرال المختفي: «من غير المستبعد أن نيدرماير كان يتعاون مع جهات سوفييتية». «ظهرت مرات عديدة شائعات تقول إنه يعمل في مكان ما من آسيا»[4]. ربما كان هذا هو السبب في أن كتاب ثورفالد اعتبره حالة صعبة وغامضة. إن من ذهب طواعية إلى موسكو عام 1945، كان من الصعب أن يجد الكثير من التعاطف في سنوات جمهورية ألمانيا الاتحادية الأولى.

إلا أن العقيد هانسن حافظ مع ذلك على ولائه لقائده السابق، وجمع في فلينسبرج النائية كل ما استطاع جمعه من أخبار عنه وقرأ بصورة منتظمة «الجريدة القومية وجريدة الجنود الألمان» اليمينية، التي مولها الأميركان، وكان ناشرها في نهاية الخمسينات دكتور جرهارد فراي، الذي تكفل بعد عقود من ذلك بصنع عناوين الصحف في ساكسن أنشتالت بصفته محرك اتحاد المطرودين الألمان اليميني المتطرف. تراسل هانسن مع هانس مولر، أحد معاوني فراي، حول مصير نيدرماير، وانتهى تبادل الرسائل يوم 11 تشرين الثاني عام 1962 باستخلاص توصل إليه العقيد يقول: «من الغريب أنه لا يمكن معرفة شيء دقيق حول مكان نيدرماير». كان العقيد يجهل أن أشقاء الجنرال كانوا على علم بموته منذ عام 1955.

حافظ هانسن على صلاته مع زوجة نيدرماير، وساعدها في يأسها وضائقتها المادية. فقد تلقت منذ الإصلاح النقدي في الأول من آب عام 1949 راتبا تقاعديا هو 57 ماركا ألمانيا. اهتم كوسترينج بدوره بأرملة نيدرماير وزارها من حين لآخر، عندما كان يزور ميونيخ. كما تلقت السيدة،

4. جوزيف ميرتس: أوسكار ريتر فون نيدرماير. في مجلة الجيوسياسة، العام 26، 1955، س 307.

التي تزايد انهيارها الجسدي والفكري في هذه الأثناء، العون من رئيس سابق لزوجها هو وزير دفاع الرايش السابق أوتو جيسلر: «إنني على اتصال دائم برئيس الصليب الأحمر البافاري أوتو جيسلر، وزير دفاع الرايش السابق، الذي كان يقدر كثيرا زوجي، كي لا أقول أنه كان يحبه». لكنه كان عليها مصارحة هانسن: «إنه لم يعد يعرف بدوره ما يمكنه أن ينصحني به»[5]. وعندما أصيبت السيدة نيدرماير بنوبة قلبية ليلة عيد الميلاد ونقلت إلى مشفى منطقة ميونيخ ـ باسنج، زارها جيسلر، مع أنه كان قد فقد إيمانه بقدرته على معرفة مصير زوجها المختفي.

العلم بين الشرق والغرب

التقى بين 22 و 26 آب عام 1947 أساتذة جغرافيا جامعيون في مدينة بون، وكانوا قد قدموا إليها من سائر القطاعات المحتلة. ذلك كان تجمعا تمثيليا للاختصاص، بل إنه كاد يكون مؤتمرا للجغرافيين الألمان. وكان المؤتمر الأخير قد عقد عام 1936 في يينا، وساد فيه كارل هاوسهوفر وأوسكار نيدرماير. ماذا حدث في السنوات الواقعة بين 1936 و 1947؟. كان ألبرشت هاوسهوفر قد قتل في أيام الحرب الأخيرة على يد الـ إس إس في برلين. وكان كارل هاوسهوفر وزوجته قد فارقا الحياة طواعية، وكتبت «أخبار من الاختصاص»، التي صدرت بمناسبة لقاء بون، وراء اسم نيدرماير: «في الأسر»[6].

كان مفهوم «الجيوسياسة» محل خلاف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان سوء استخدام الفكر الجيوسياسي من قبل الدعاية النازية،

5. رسالة السيدة نيدرماير إلى فالتر هانسن يوم 29 كانون الأول 1950: الأرشيف البافاري ـ الأرشيف العسكري، 304/17.

6. حول لقاء بون، انظر: كارل ترول: العلم الجغرافي في ألمانيا في أعوام 1933 ـ 1945. نقد وتسويغ. في جغرافية الأرض، الجزء الأول، 1947، ص 3 ـ 48.

وتورط ممثليه الكبار في سياسات دولية تقوم على القوة إبان حكم الرايش الثالث قد أقنع الجغرافيين الألمان بضرورة الحذر. وقد رجا الحاضرون الجغرافي الوقور فيلبسن تولي رئاسة اللقاء الشرفية، تأكيدا لرغبتهم في بداية جديدة وتمسكا بالتقاليد العظيمة. أعلن فيلبسن، الذي لاحقه النازيون وأرسلوه إلى معسكر اعتقال، استعداده لرئاسة اللقاء الشرفية، لكنه لم يشارك في تجمع رفاقه في الاختصاص.

احتلت علاقة الجغرافيا الألمانية بجغرافيا هاوسهوفر السياسية والاشتراكية القومية مركز الاهتمام في مداولات لقاء بون، فأكد كارل ترول، أستاذ الكرسي في جامعة بون ودارس منطقة آسيا الوسطى المعروف عالميا، في مراجعة نقدية ألقاها بعد اللقاء على فترة 1933 ـ 1945: «كان يجب أن يمارس نقد تلك الفترة العلمي بأكثر الأشكال حدة، لكن بعض من كانوا قادرين على ممارسته لم يريدوا ذلك، أو أحجموا عنه لاعتبارات شخصية واجتماعية تتعلق بخوفهم من الإساءة إلى شخصية هاوسوفر اللطيفة من جهة، وإيمانهم من جهة أخرى بقدرته على استخدام صلاته مع القيادة النازية عبر تلميذه رودلف هيس لاتقاء مصائب السياسة وجلب منافعها».

كتب كارل ترول، انطلاقا من معارفه الخاصة بتشابك نسيج علاقات الثلاثينات، وقال إن كارل هاوسهوفر وأوسكار نيدرماير كتبا في نيسان من عام 1936 إلى لجنة الجامعات التابعة لاتحاد المعلمين الاشتراكيين القوميين يؤيدانه، وأبدى نيدرماير أسفه في رسالة بعث بها إلى هاوسهوفر يوم 28 نيسان 1936: «لأن التحريض الشخصي يشل فاعلية أشخاص من أمثال ترول»، وروى أن زوجته إليزابيت، التي قدم نيدرماير لها كتابه «تحت شمس إيران اللاهبة» مع إهداء شخصي بخط يده[7]، كانت تعرف أنه يحافظ على

7. وصل الكتاب من تركة ترول إلى مكتبة حلقة البحث الجغرافية في جامعة فريدريك فيلهلم الراينية.

مسافة نقدية من هتلر، ومن اعتقاده الشخصي الوهمي بإمكانية منع «جنون هتلر» بواسطة العمل العلمي والنشاط الاستشاري[8].

إن الاتهام الذي وجهه ترول، وهو أن العلم الجغرافي المتخصص لم يجابه بإصرار كاف استغلال الجغرافيا السياسية له، كان يصيب بالتأكيد نيدرماير أيضا، الذي تحاشى في الثلاثينات مجادلة علمية مع هاوسوفر، لأنه كان عازفا عن إيذاء صديقه القديم، وراغبا في استغلال ارتباطاته مع رودلف هيس من أجل مصالحه الخاصة. لكن نيدرماير أدان بصورة صريحة في «جغرافيته العسكرية»، الصادرة عام 1939، «مذهب الحتمية الجغرافية» القائم على مبادئ جبرية. إن الجيوسياسيين من أمثال راتسل وكارل هاوسهوفر، الذين يريدون تحديد مصير الأرض طبقا لـ«قوانين» جغرافية، يخضعون في نظر نيدرماير للنزوع الألماني المأساوي نحو «إقامة بناء فكري مجرد بقواعد».

بينما بقي إنجاز كارل هاوسهوفر العملي محل خلاف دائم بعد 1949، واصلت الدوائر الجغرافية اعتبار نيدرماير، المنسي من الرأي العام، عالما ذا خبرة عسكرية وناقدا بصيرا، وعدوه «أحد أكثر جغرافيي زمنه العسكريين أهمية»[9]. لذلك استأنف بعد 1945 علماء من دائرة «معهد برلين للعلم العسكري العام» ومعهد «شايده مولر للأبحاث الوطنية» النهج المتعدد الإختصاصات للعلم الجغرافي والتاريخي والسياسي، الذي كان إنجاز نيدرماير. ذاع بعد عام 1945 صيت جيرهارد أوستررايش، المساعد العلمي في معهد نيدرماير لشؤون التاريخ العسكري، بصفته أبرز مؤرخ للحقبة المبكرة من العصر الحديث. أما مؤرخ شرق أوروبا هربرت لودات، الذي

8. هانو بيك: مغامرة في إيران، راجع «رجع الثقافة الإيرانية» العام الثاني، العدد الثاني، 1983، ص 129 ـ 140.

9. كلاوس كوست: تأثيرات الجيوسياسة على أبحاث ونظرية الجغرافيا السياسية من بداياتها إلى عام 1945. بون 1998، ص 338.

تركز اهتمامه على تاريخ بولونيا والعلاقات الألمانية البولونية، فقد صمم معهده الذائع الصيت في جيسن، المتخصص بالأبحاث الزراعية والاقتصادية القارية على غرار معهد شايده مولر للأبحاث الوطنية[10].

درس تلميذ نيدرماير أوتو ـ إرنست شوده كوبف، الذي كان قريبا من الأوساط البلشفية القومية، بعد الحرب كتابات التيارات البلشفية القومية الرئيسة في حقبة ما بين الحربين، كما درس التعاون بين جيش الرايش والجيش الأحمر. وإنه لأمر يدعو إلى التفكير أن شوده كوبف لم يذكر في أبحاثه ولو بكلمة واحدة أستاذه الأكاديمي نيدرماير، ولم يعرج على دوره المفتاحي كمدير لـ«مركز موسكو». وهناك أشخاص كثيرون كشوده كوبف، قيض لهم أن يكونوا على تماس معه، يحجمون عن الاعتراف بوجود علاقة كانت تربطهم به.

ينطبق هذا أيضا على أرتور كون، مساعد نيدرماير الرئيس، المتحفظ، الذي يترك انطباعا بالهشاشة مع انه صلب. من المعروف أن عالم الطبيعيات الشاب نظم قبل الحرب العالمية بقدر عظيم من نكران الذات إدارة المعهد الصاعد وأسس فيه مكتبة على درجة رفيعة من الفائدة، وحمل في غياب نيدرماير عبء الإدارة والتدريس في المعهد بكامله، بعد أن تم إعفاؤه من الجندية لأسباب صحية. وقد درّس كأستاذ خاص في أكاديمية الحرب الجوية في جاتوف ونال عام 1943 وسام الاستحقاق الحربي من الدرجة الثانية باقتراح من نيدرماير[11].

التقى بعض مستمعي جاتوف بعد الحرب مع كون في منطقة هامبورج ـ بلانكنسي، حيث كان تلميذ نيدرماير أستاذا في أكاديمية القيادة التابعة للجيش الاتحادي. كان خريجو أكاديمة سلاح الجو في جاتوف قد أصبحوا أكبر

10. كريستوف يار: صلة القوات المسلحة الفكرية بالعلم والسياسة، ص 161 ـ 176.
11. توجد الرسالة ضمن تركة ارتور كون.

سنا، وكانوا يقودون سلاح الجو الألماني ويتذكرون أساتذة الأيام الخوالي. في العيد السبعيني لكون، مد جنرال في الجيش الاتحادي جسرا يصل إلى تلامذة الأستاذ في جاتوف: «لقد كانوا الضباط أنفسهم، الذين مثلوا في أكاديمية القيادة التابعة للجيش الاتحادي الجمهور الجديد، الذي شرحتم له مذهبكم»[12].

لم يكن طريق حياة كون سهلا بعد عام 1945. إن من كان يدرس خلال الحرب جغرافيا عسكرية وجغرافيا سياسية في جامعة برلين وأكاديمية الحرب الجوية، لم يكن من حقه له أن يعجب إذا كان لم يجد بعد الحرب عملا في جامعة ألمانية. هكذا كسب كون لقمته أول الأمر كعامل طرق وحمال. ثم وجد عملا بين 1946 و 1948 كمساعد علمي لدى بعثة الصين العسكرية الوطنية في برلين، حيث كانت ذكريات فون سيكت والعون العسكري الذي قدمه جيش الرايش ما تزال حية. وعثر أخيرا عام 1950 على وظيفة محاضر في أكاديمية أبحاث الفضاء والتخطيط الإقليمي في هانوفر.

عندئذ، بدأت أمور كون تتحسن تدريجيا، فصار عام 1954 مدير شؤون الأكاديمية وفي عام 1958 مديرها العلمي. وكلف في الفصل الشتوي عام 1960/ 1961 بتدريس الجغرافيا التطبيقية والسياسية في جامعة برلين الحرة، وعين عام 1962 أستاذ شرف وعام 1965 أستاذ كرسي مادة الجغرافيا التطبيقية في كلية الرياضيات والعلوم الطبيعية. ودرس كون في جامعة برلين الحرة حتى تقاعد في آذار عام 1973.

تلقى كون يوم 9 آب 1945 نبأ كُتب على قصاصة ورق صغيرة يقول: «قررت لجنة العلوم القيادية نقل بقايا معهد الساسة العسكرية السابق دون النظر إلى إمكانية استخدامها لاحقا من شارع جيورجن رقم 41، وكلفت السيد الأستاذ بيتجن بهذه المهمة، على أن لا يؤدي هذا لاحقا إلى إعاقة

12. انظر حول ارتور كون الكتاب الصادر بمناسبة عيد ميلاده السبعين.

مواصلة عمل الأستاذ فون نيدرماير». لم يكن هناك في برلين الحرب الباردة مؤسسة تتصل رسميا بـ«معهد العلم العسكري العام» الذي دمر عام 1945. مع ذلك، واصل كون في جامعة برلين الحرة تقاليد معهد نيدرماير بصمت. وكلف 1960 بالتدريس في معهد أوتو زور في داهلم، الذي كان مصنع الأطر في الجامعة الحرة. أما في الفصل الشتوي لعام 1960/ 1961 فقد عالج «الجغرافيا السياسية لنظم الأحلاف الكبرى»، وحاضر في الفصول الدراسية التالية حول مواضيع منها «جغرافية أوروبا السياسية» و«جغرافية المجال الأطلسي السياسية» أو «الجغرافيا السياسية للحرب العالمية الثانية».

لا توجد معلومات في وثائق الجامعة الحرة حول علاقة كون بالحركة الطلابية، ويبدو أنه حاضر وبحث دون أن يلتفت إلى فترة 1968 الانعطافية، وتزايد ابتعادا عن عمل هيئات الطلبة الجامعية، المتشرة في سائر الجامعات. في تلك الفترة، كان كون يعمل في التخطيط المجالي، ويعالج قضايا التطور السياسي، والتناقض بين الشمال والجنوب، والعلاقة بين الشرق والغرب. وقد تخلى، على عكس أستاذه نيدرماير، عن التصاميم الجيوستراتيجية الكبرى ذات البعد الكوني، وربى عوضا عن ذلك جيلا من التلامذة حلل بطريقة ذرائعية «إصلاح البلدية والناحية في بادن فورتمبرج من منظور الباحث» أو أحصى «السابحين على ضفاف مجمعات برلين المائية»، مع أنهم لم يهملوا الانشغال الجغرافي ـ السياسي بالشرقين الأدنى والاوسط، وبالنقطة المحورية لموقع القوة العالمية الأنجلو ـ أميركية، وإن كان اهتمامهم قد اقتصر على إمداد ألمانيا وأوروبا المضمون بالنفط.

ليس معروفا كيف كان رد فعل كون على تظاهرات طلبة برلين ضد زيارة شاه إيران رضا بهلوي عام 1967. لا شك في أنه عرف، كتلميذ لنيدرماير، أن المستبد الفارسي كان في نظر طلبة برلينيين كثيرين مجرد ألعوبة في يد احتكارات النفط وأداة لإمبريالية البترودولار، وأحس أن المظاهرات ضد الشاه كانت بداية ذلك الصراع المتزايد الشدة بين المجموعات اليسارية

المتطرفة وسلطة الدولة في جمهورية ألمانيا الاتحادية وبرلين الغربية. ومن المعروف أنه تكونت آنذاك في بلدان المحور السابقة إيطاليا واليابان عصابات إرهابية ذات ميول معادية للغرب هي الكتائب الحمراء وعصب الجيش الأحمر، وأن المتطرفين اليساريين اليابانيين أرادوا نقل نضال آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية التحرري إلى متروبولات الغرب الرأسمالي.

إلا أن جماعات الأنصار، والحركات المعادية للكولونيالية، وحروب العصابات، والعداء للأمبريالية اجتذبت أيضا مفكرين يقفون على الجانب المحافظ من الطيف السياسي، فكتب كارل شميت، رفيق أحاديث نيدرماير في برلين، دراسة صغيرة حول «نظرية الأنصار»[13]، رسم فيها خط اتصال يمتد من حروب التحرير البروسية مرورا بـ«محاولات التثوير الضعيفة التي قامت بها الحكومة الألمانية وأركان الجيش الألماني العامة خلال الحرب العالمية الأولى» وصولا إلى الحاضر. وعبر شميت، خلال تمرد الطلاب الأوروبيين وحرب فيتنام، عن تفهمه لمقاتلي حروب العصابات وتعاطفه معهم، فاكتسبت أفكاره المتفجرة نفوذا على ممثلي جيل 1968 المتطرفين والمستعدين لممارسة العنف.

كان جونتر ماشكه، صهر الإرهابية جوردون إنسلين، أحد هؤلاء واعتُبر بطل المعارضة غير البرلمانية. وقد تحول فيما بعد إلى اليمين وصار رفيق العجوز كارل شميت، وإن بقي معجبا بفيدل كاسترو، ورأى أن أميركا، القوة العالمية الأنجلوساكسونسة، هي عدو ألمانيا وأوروبا والعالم الرئيس. طور ماشكه تصورات عبثية عن قدرات ألمانيا الجيوسياسية: «نستطيع قيادة العالم الثالث كله ضد أميركا». بغض النظر عن ضلالاته، لفت ماشكه الأنظار لأول مرة إلى مراسلات كارل شميت وأوسكار نيدرماير، عندما أصدر طبعة نموذجية من أعمال كارل شميت، الذي أكد لماشكه «بحيوية ما

13. كارل شميت: نظرية النصير. برلين 1963.

كان مفعما بالاسرار في جوهر نيدرماير»[14].

لاحظ المطلعون في جمهورية ألمانيا الديموقراطية لدى نيدرماير مزيجا غريبا من الواقعية الصلبة والفكرين اليساري واليميني. وكان قد صدر في برلين الشرقية كتاب إرنست تيلمان «سياسة ألمانيا العربية في الحرب العالمية الثانية»[15]، الذي يعد إنجازا علميا حقيقيا رغم الإطار الماركسي / اللينيني الذي حشر فيه. وقد توصل تيلمان إلى تقويم إيجابي مفاجئ لسياسة ألمانيا في الشرقين الأدنى والأوسط بين 1939 و 1941، التي اختلفت في أهدافها وطرقها عن سياسة بريطانيا وفرنسا الكولونيالية التقليدية. قال المؤرخ الألماني الديموقراطي حول تصورات جروبا ونيدرماير: «تثبت مصادر هذه الكتابات الأرشيفية أن ممثلي الأمبريالية الألمانية طوروا عشية الحرب العالمية الثانية وخلالها طرقا للتوسع الكلي أكثر مرونة من طرق السيطرة البريطانية الفرنسية المتقادمة، تتضمن عناصر جوهرية من الكولونيالية الجديدة».

هانتيج

اهتم الأستاذ فيرنر هالفيج، المدرس في جامعة مونستر ومستشار الجمعية الدولية لأبحاث كلاوزيفيتز، بموضوع «حرب الغوار»، بتأثير حرب فيتنام وحروب التحرير المستعرة في كل مكان. وقد كلف، بصفته أحد أكثر مؤرخي القرن العشرين أهمية، رغم تسمية «فيرنر المدافع» الساخرة التي أطلقها الطلبة اليساريون عليه، اثنين من طلبة الدكتوراه بدراسة محاولات التحريض وإشاعة الاضطراب في الشرق الأدنى خلال الحرب العالمية الأولى، على أن يكتب كونراد مورسي عن الدعم البريطاني لانتفاضة العرب، وتشتغل رينات فوجل على أوسكار نيدرماير، الذي كان هالفيج قد درس شخصيته الغامضة والمفعمة بالأسرار. تعرف هالفيج على ألبرشت

14. انظر صورة فيلي فينكلر عن جونتر ماشكه في جريدة جنوب ألمانيا، 18 أيلول 1998.
15. هاينس تيلمان: السياسة العمالية.

هاوسهوفر في برلين الثلاثينات، وليس معروفا إن كان قد قابل آنذاك نيدرماير أيضا، مع أن طرفا ثالثا لفت نظره إلى أهميته بالنسبة إلى بعثة أفغانستان[16].

طرحت طالبة الدكتوراه أسئلتها على جونتر فوجت، الباقي الوحيد من بعثة نيدرماير، الذي طبعته خلفيته العائلية بطابع بروسي، وعاش في مدينة توبنجن الجامعية، وكان قد أدار ظهره لمهنة الجندية في بداية جمهورية فايمار، بسبب الموقف الرجعي والمحافظ الذي اتخذه عدد كبير من زملائه الضباط، وتبنى في فترة لاحقة موقفا متحفظا من النظام النازي، وتحدث الآن بطريقة نقدية عن الشخصيتين الأكثر بروزا في بعثة أفغانستان الألمانية، فاعتبر الديبلوماسي فون هانتيج متبجحا ومغرورا، وبدا له نيدرماير، رئيسه العسكري، ملحاحا وقليل الاكتراث بالآخرين، فضلا عن ميله إلى تضخيم ذاته.

عندما ظهرت أطروحة فوجل عام 1977 بعنوان «بعثة أوسكار نيدرماير الأفغانية الفارسية»، رأى فون هانتيج، الذي كان قد بلغ آنذاك الحادية والتسعين، فيها إهانة شخصية، وأصر على أنه كان القائد السياسي لبعثة أفغانستان، لأنه كان مكلفا، بخلاف نيدرماير، بصورة شخصية وكتابية بتمثيل الرايش الألماني وبالتفاوض نيابة عنه، وهو أمر شكك عنوان اطروحة فوجل فيه. وقد شكا يوم 12 كانون الأول عام 1977 أمره بمرارة إلى لودفيج آداميك، مؤرخ وأخصائي أفغانستان المقيم في توسكون الأميركية، المتزوج من حفيدة حبيب الله، التي كانت البعثة جزءا من تاريخ أسرتها، بينما كان زوجها مصابا بحمى أفغانستان منذ أيام شبابه الاولى. وقد رأى الاثنان الآن كم كان الصراع عنيفا في حينه بين شخصيتي البعثة القياديتين.

كان هانتيج غاضبا: «تستشهد طالبة الدكتوراه بادئ ذي بدء بجيهركه، ثم تستشهد بكم بالدرجة الثالثة كي تبرهن أن الأمر تعلق بعملية قام بها

16. معلومة ودية من السيدة الدكتورة ريناته فوجل من أسلنجن.

هانتيج ـ نيدرماير، وأنني كنت مرؤسا له». اتهم هانتيج المؤرخة الشابة «بتشويه التاريخ»، وأنهى رسالته إلى آداميك بتحية «من أيام ما قبل الميلاد العكرة»[17].

عبر هانتيج في الفترة التالية عن وجهة نظره حول الأحداث أمام مؤرخين وصحفيين. وظهرت عام 1990، بعد ستة أعوام على وفاته، مقالة بقلمه في «الأنباء الإيرانية»[18]، يتهم فيها نيدرماير باغتصاب قيادة بعثة أفغانستان الألمانية «أمام أبواب الهند خلال الحرب العالمية الأولى، بصفته الحاج ميرزا حسين. وبينما كان هو يعبر الصين خلال رحلته المفعمة بالأخطار، ويسير حول العالم في طريقه إلى برلين، كان نيدرماير يشد أنظار الرأي العام إليه في برلين». انتقد هانتيج بشدة تأكيد المؤرخة أن نيدرماير كان القائد العسكري للبعثة، وقال: «ليس صحيحا أيضا أن بعثة هانتيج وضعت تحت قيادة نيدرماير العسكرية».

لم يفلح هانتيج في التخلص خلال عقود حياته الأخيرة من الصراع مع نيدرماير. وعندما صدرت عام 1967 مذكرات جوربا بعنوان «رجال وقوى في الشرق»، التقط قلمه وكتب ردا عليها. كان جروبا قد عمل مع نيدرماير بين عامي 1939 و1941 في برلين، كما كان منافس هانتيج في وزارة الخارجية، لذلك، تحولت مراجعة كتاب جروبا في «التسايت» إلى مناسبة للشقاق[19]: «من المؤكد أن نص الكتاب المنشور حجب عن مسؤول الأرشيف في وزارة الخارجية المتوفي الدكتور أولريش، العارف الممتاز بظروف سيبيريا ورفيق معاناة جروبا فيها، وإلا لكان عارض السماح بطباعته. كما أن دار الطباعة لم

17. في أرشيف لودفيج آداميك في توسكون / أريزونا.
18. فيرنر أوتو فون هانتيج: الحاج ميرزا حسين أمام أبواب الهند خلال الحرب العالمية الأولى. في «الأنباء الإيرانية»، العام 20، العدد 3، 1990، ص 91 ـ 117.
19. سلة من أبن سعود: ديبلوماسي خدمة القيصر وهتلر في الشرق الأدنى. ومناقشة فريتز جروبا في جريدة ال «تسايت» بتاريخ 29 آذار 1968.

تفعل خيرا، عندما تبنت دون الرجوع إلى وزارة الخارجية دفاع رجل عن نفسه، اتصف بالجدية لكنه لم يكن على قدر المهام التي كلف بها».

اتهم هانتيج خصمه جروبا بالتسبب في موت الرائد فون بلومبرج، قائد الوحدة الجوية الألمانية الصغيرة، أثناء لحظة حاسمة من دعم العراق في أيار من عام 1941. لقد قتل أكسيل فون بلومبرج الشاب لأن جروبا «طلب إليه القيام بجولة استعراضية فوق بغداد، اسقطه خلالها خطأ الدفاع الجوي العراقي». يختلف الخبراء إلى اليوم حول ما إذا كان طيار بريطاني أو مدفع عراقي هو الذي تسبب في موت الرائد الألماني.

كان كتاب جروبا بالنسبة إلى هانتيج مناسبة جعلته يرسل يوم 10 تموز من عام 1968 رسالة إلى لودفيج آداميك في أريزونا يقول فيها: «أنت تعرف عني بالتأكيد ما دفعني في الفترة الأخيرة بصورة خاصة إلى تصحيح علاقة بعثتي المؤجلة عمدا مع مشروع سبقها بثلاثة أرباع العام شارك فيها السيد نيدرماير. واستكمالا لمذكرتي عن شخص هذا السيد والسيد جروبا، الذي يشبهه في الطموح، أخبرني قبل فترة قصيرة شاهد فارسي رأى أيام الحرب العالمية تلك الأحداث هو ذو الفضل أفشار أن نيدرماير كان عضوا في شرطة الدولة السرية، مثل عميليها قرشي وشارك، مثلما كان جروبا عضوا في المكتب الخارجي للحزب النازي. تقرب الاثنان من الروس عام 1945، لاعتقادهما أنهم لا يعرفون ظروف ألمانيا النازية. وقد وقفت في طريقهما»[20].

أكد هانتيج مرة أخرى في 11 آذار 1969 دوره القيادي خلال حملة أفغانستان وموقعه حيال نيدرماير، عندما قال في رسالة إلى آداميك: «لقد أمرت عام 1972 باستعمال مقاطع من وثائق وزارة الخارجية تعرفونها جيدا من أجل تصحيح هذه العلاقة، التي تركها السيد جروبا ملتبسة، كما كان قد

20. رسالة هانتيج بتاريخ 1تموز 1968 و 11 آذار 1969 في أرشيف لودفيج آداميك.

تركها من قبل السيد جيهركه. وعليّ إبداء أسفي بصورة لاحقة لأنني تخليت، لاعتبارات ترتبط بالزمالة وتجنبا للفضيحة، عن إقامة دعوى قضائية ضدهما وضد ناشر أعمال نيدرماير أيضا. إن التاريخ وكتّابه، أي أنتم عزيزي الأستاذ، مدعوان الآن إلى تصحيح الوقائع من أجل جمهوركم الأميركي، باستخدام ما تتضمنه مستنداتكم من معارف وما لديكم من قرائن وبراهين. لم يكن بوسعكم أن تعرفوا طبعا أن الملازم الأول نيدرماير، الذي أعنته على نيل وسام رفيع، كان مصابا بمرض نفسي، كما يظهر من مصيره وموقعه الخاص، ومن تأثيره على الآخرين الذي لست في وضع يمكنني من تقويمه».

يبدو أمرا مأساويا ومفهوما أن يبقى شخصان كنيدرماير وهانتيج عدوين لدودين طيلة حياتيهما. كان ابن الموظف البافاري وابن النبيل البروسي متشابهين: فكان كل واحد منهما ذكيا، طموحا، قوي الإرادة، معدا فكريا وجسديا للتغلب على تحديات خارقة. أن فون هانتيج لم يحمل دون سبب وسام إنقاذ الحياة. وفي حين رأى معاصرو نيدرماير فيه رجلا غامضا ولا مباليا، بدا هانتيج لهم ميالا إلى الغرور والدسائس. ولو كان للخصمين أن يختارا أسلحة المبارزة، لاختار نيدرماير السيف وهانتيج الشيش، أو ربما الخنجر. كان الصراع على قيادة بعثة أفغانستان الألمانية عقيما فأضر بهما كليهما. ربما كان هذا يفسر الأسباب التي جعلت وزارة الخارجية تركز في نعوة هانتيج على «البعثة الديبلوماسية»: «نفذ عام 1915 بعثة ديبلوماسية غدت شهيرة عبر الشرق الأدنى وفارس إلى أفغانستان»[21].

توفي هانتيج في ليندنيس النرويجية يوم 8 آب عام 1984 عن عمر يناهز ثمانية وتسعين عاما، وفارق الحياة كشخصية من السياسة والتاريخ الألمانيين تحظى باحترام رفيع، لكنها محل خلاف في الوقت نفسه. لقد كان واحدا

21. انظر نعي وزارة الخارجية للسفير هانتيج بتاريخ 13 آب 1984.

من أكثر ديبلوماسيي ألمانيا خبرة: «حياتي رحلة عمل»، ذلك كان عنوان مذكراته. لم تقد الحياة هانتيج إلى كابول وحدها، بل أخذته أيضا إلى اسطنبول، وريفال، وصوفيا، وسان فرانسيسكو، وبوجوتا وأمستردام. وكان يريد عام 1914، مثل نيدرماير وجروبا، نقل مركز ثقل الحرب الألمانية إلى الشرق، لتقديم بديل استراتيجي لحملة هتلر الإبادية في الشرق.

اتسم موقف هانتيج بعد الحرب العالمية الثانية بالتشاؤم تجاه سياسة أديناور الموجهة نحو دمج ألمانيا في الغرب، لاعتقاده أنها تقوض فرص إعادة توحيد ألمانيا سلميا. وقد مثل ألمانيا في أندونيسيا حتى عام 1954، وسافر بعد أن تقاعد إلى بغداد وطهران وكابول. وبقي طيلة حياته على علاقة سيئة مع دائرته، وزارة الخارجية الألمانية. عندما رثته، استشهدت جريدة فرانكفورت العامة بكلماته: «كانت حياتي نضالا استمر خمسين عاما واتسم غالبا بالفشل، ضد بيروقراطية تتقدم إلى مواقعها القيادية بالراحة، تتصف بالصلابة في الأخذ، وبروح الابتكار في التحاشي، وتملؤها القناعة بأنها ستبقى بعد أعدائها، وإن فقدت جولة هنا أو هناك»[22]. وفي النهاية، يبدو كإطراء لوزارة الخارجية أنها كرمت هانتيج في رثائها، حين قالت: «إنه كان مزعجا من حين لآخر، لكنه كان دوما أصيلا وخلاقا»، وأنها ستخصه على الدوام بالتكريم.

خصت ناشرة الـ «تسايت»، ماريون جريفين دونهوف، هانتيج برثاء نبيل، وهي التي كانت تعرفه من أيام الشباب، عندما كان يأتي إلى قصر فريدريشتاين، مقر أسرتها في بروسيا الشرقية. ورسمت في كتابات متنوعة حافلة بالتعاطف والتفهم صورة عن شخصيته الغنية بالألوان، والمتناقضة والصعبة. كما ودعت يوم 17 آب 1984 بحس رهيف رفيق نيدرماير ورفيق طريقه في جريدة الـ«تسايت»: «رافقت المغامرة والشهرة، وكذلك بعض

22. جريدة فرانكفورت العامة، الانضباط والمغامرة. حول وفاة فون هانتيج، 10 آب 1984.

الإزعاج حياته، لأنه كان عنيدا إلى درجة لا تصدق، وقال رأيه دائما بغض النظر عما إذا كان يستفز الآخرين. هذه النزعة إلى الاختلاف في زماننا الدمجي خلقت بعض الأعداء لهانتيج، لكنها جلبت له أيضا بعض أكثر الأصدقاء إخلاصا»[23].

بعد التحول

بعد عام من التحول في 1990، نشرت «الأنباء الإيرانية» نزاع هانتيج بعد موته مع نيدرماير، جلس اثنان من ضباط نيدرماير السابق، وكتبا عرضا معاكسا وأعطيا إعلان شرف لصالح قائدهما السابق[24]. هذان الرجلان كان أحدهما العقيد المتقاعد كونراد بار، المعاون السابق لقائد فرقة المشاة التركية 162، الذي عاد عام 1955 إلى مهنته العسكرية القديمة، فخدم في وظائف مندمجة داخل حلف شمال الاطلسي، وقاد في النهاية لواء مدفعية في الجيش الاتحادي. أما الثاني فكان رجل القانون والمستشرق الدكتور كارل فرايهر فون شوفينجن، نائب رئيس محكمة إقليم بادن بادن السابق، الذي عمل كخبير لغات في فرقة نيدرماير، وارتبط ارتباطا وثيقا بحياة الجنرال من خلال والده، المترجم القيصري كارل إميل شابينجر فرايهر فون شوفينجن، الذي التقى بصفته نائب ماكس فون أوبنهايم مع نيدرماير عام 1914. وقد تذكر ابنه عام 2000 «إذا ما تأملت واقعة أن والدي تعرف خلال تشرين الثاني من عام 1914 على الملازم الأول نيدرماير في مقر ولي العهد الرئيس روبرشت فون بايرن في فرنسا، وأنه عرف فيما بعد بإرسال البعثة إلى أفغانستان، بحكم إشرافه على وكالة الأنباء الشرقية في برلين، فإن أسرتي تكون مرتبطة منذ 86 عاما بطريقة من الطرق مع نيدرماير ومصائره».

23. ماريون جريفين دونهوف: ديبلوماسي ومغامر، في الـ«تسايت» 17 آب 1984.

24. كونراد بار / كارل شوفينجن: رسالة إلى المحرر، في «الأنباء الإيرانية»، السنة 21، العدد 2 (1991) ص 118 ـ 121.

تابع بار وشوفينجن بأعظم قدر من الاهتمام تداعي الامبراطورية السوفييتية ونشوء دول جديدة في آسيا الوسطى والقوقاز. وكانا يفكران بوحداتهما المتطوعة عام 1942 ـ 1944، وبالأحاديث المديدة مع نيدرماير، وأحداث الحاضر المضطربة. ثم انطلق شوفينجن إلى العمل، فكتب مذكرة مكرسة للجيش الاتحادي عنوانها «تفكير بالفرقة التركية بمناسبة التطورات الجديدة في تركستان وما وراء القوقاز»[25]، تصف التجارب مع وحدات القوات المسلحة الكبيرة التي ضمت آنذاك منتسبين إلى الشعوب التركية، وتقول: إن التغيرات الجيوسياسية الجوهرية في أعوام 1989 ـ 1991، «وانهيار الشيوعية الداخلي، وانحلال الاتحاد السوفييتي، والظهور المفعم بالوعي لجمهوريات تركستان وما وراء القوقاز»، لا تعني نهاية الحرب الباردة وحسب، بل تعني كذلك مبارحة حقبة بدأت قبل وقت طويل من مواجهات المعسكرات: «وعلى المرء أن لا ينسى مطلقا أن الاتحاد السوفييتي كان آخر امبراطورية كولونيالية».

ذكّر شوفينجن بأن السيطرة الكولونيالية الروسية في القوقاز وآسيا الوسطى، التي ترجع إلى زمن القياصرة، غالبا ما تواجه بالتجاهل في الغرب، «مرة بسبب وضع مناطقها الكولونيالية المتصلة أرضيا بالبلد الأم، دون أن تفصلها بحار أو قارات، ومرة أخرى لأن السوفييت أخفوا بمهارة هذه الواقعة الحقيقية من خلال منح كل منطقة قوام جمهورية اشتراكية سوفييتية «لها مرتبة روسيا ذاتها». هذه الامبراطورية تماسكت بفضل نخبة موسكو وفكرتها الماركسية الامبراطورية، التي ما لبث اندماجها الداخلي وأساسها السياسي / الأيديولوجي أن تعرض لتآكل تدريجي، إلى أن إنهار أخيرا خلال سنوات قليلة: «كان الحزب الشيوعي أداة ربط الامبراطورية،

25. دكتور كارل شوفينجن: تفكير راجع بالفرقة التركية 162 بمناسبة التطورات الجديدة في تركستان وما وراءها، 1992، في الارشيف البافاري ـ الأرشيف العسكري، 2 / 4143.

لكن مركزها كان في موسكو، وهو الذي أبقى سيطرتها على الامبراطورية». بعد انهيار الامبراطورية البريطانية، صارت الامبراطورية السوفييتية ـ الروسية بعد عام 1991 جزءا من الماضي بدورها. بذلك انتهت حقبة من تاريخ العالم، وبدأ زمن جديد.

ألقى فون شوفينجن ورفيقه في الحرب بار نظرة ملؤها الدهشة على الحاضر. لقد جندا قبل أربعة وخمسين عاما قوقازيين وأسرى من آسيا الوسطى بوعد الاستقلال وتقرير المصير، وها هما يشهدان الآن كيف تؤسس شعوب هاتين المنطقتين دولا مستقلة حقا. ذلك جعل فون شوفينجن يصل عام 1992 إلى الاستنتاج التالي: «يستطيع المرء أن يقول بكل الحذر اللازم أن الكتائب الشرقية في فرقة المشاة 162 الكبيرة، المؤلفة من متطوعين ينتمون إلى الشعوب التركية، كانت الوحدات الكبيرة الوحيدة التي مثلت مرحلة في طريق الشعوب التركية إلى الاستقلال». وافق كونراد بار، معاون نيدرماير، على هذا التقدير، وتذكر «السمعة الأسطورية، التي تمتع بها رئيسه المبجل لدى المسلمين».

غير أن السيدين، اللذين انطبعا بطابع خبرات الحرب العالمية، والحرب الباردة والاندماج المتحقق في الغرب تجاهلا أو أزاحا نقطة حاسمة هي أن فرقة المشاة التركية 162 كانت بعد عدوان هتلر على الاتحاد السوفييتي عام 1941 مجرد حل إجباري وحسب بالنسبة إلى نيدرماير، أملاه الوضع القائم. لم يكن الجنرال يريد تحطيم الاتحاد السوفييتي بأي حال من الأحوال، بل كان يتطلع إلى شراكة ألمانية مع القوة الأوراسية الأولى، التي لم يتفق تقسيمها إلى مزق صغيرة مع تصوراته، لأنه بخلاف شوفينجن لم ير فيها امبراطورية كولونيالية، بل محاولة سياسية لإعطاء أقسام كبيرة من أوراسيا نظاما مجاليا اجتماعيا واقتصاديا كبيرا من نوع خاص، كان في نظره شرطا جوهريا لقيام نظام عالمي متعدد الأقطاب، بما أنه من المحال أن يوجد دون

مجال أوراسي كبير قطب مقابل مؤشر ضد سيطرة الانجلوساكسون العالمية التي تحميها البحار.

تنبأ كارل فون شوفينجن عام 1942/ 42 أمام ضباط الفرقة التركية 162 مشاة أن الولايات المتحدة الأميركية ستحتل المواقع البريطانية، وستتولى مراقبة منطقة الشرقين الأدنى والأوسط المفتاحية بالنسبة إلى السياسة الدولية. آنذاك، وافق نيدرماير بصراحة على نبوءته. ماذا يمنع أن تفرض القوة العالمية الأميركية الآن مصالحها بطريقة هادفة ومؤثرة في القوقاز وآسيا الوسطى، بعد أن انهار الاتحاد السوفييتي؟. لقد أغرق تداعي مجال القوة السوفييتي في أعوام 1989 ـ 1991 الوضع الذي ارتكز عليه تفكير نيدرماير السياسي والاستراتيجي، فكان غيابه نقطة نهاية.

وضع جديد

بعد الحرب الباردة، انتقل مركز ثقل السياسة الدولية إلى نصف الكرة الغربي لأول مرة في تاريخ العالم. ومع ذلك، يقدم فكر نيدرماير في الحاضر أيضا بعض نقاط الارتكاز، الضرورية للتعامل بطريقة بناءة مع المسائل السياسية. لا شك في أن الصراع بين البر والبحر، وبين القوى القارية والبحرية قد ألغي إلى حد بعيد في عصر الطائرات الخفية، وأسلحة الدقة الفائقة، والأنترنت. لم تعد السيطرة البحرية تقرر مصير «الأمبراطورية العالمية»، الذي يتعين اليوم بالرقابة على الفضاء الجوي والكوني وتدفقات الرساميل وطرق الاتصالات. غير إن الانفجار السكاني، وتدمير الأسس الطبيعية للحياة، وتبدل المناخ وانتهاكات حقوق الإنسان لا تزال على صلة مباشرة مع الصراعات السياسية المرتبطة بالقوة وبالأوضاع الجيوستراتيجية.

إن مطالبة نيدرماير بتعريف حملة القرار السياسي بنتائج الأبحاث الجغرافية وعلم السياسة باعتبارها «طباقا ديناميكيا»، لا تزال راهنة اليوم أيضا. أما تحذيره من تفسير العوامل الجغرافية بطريقة معتقدية، وإلحاحه

على مراعاة «قيمتها الوضعية النسبية» بصورة دائمة، فلا يزالان صحيحين. وينتمي «المفهوم العسكري الموسع» الذي صاغه «كمفهوم أمني موسع» إلى المفردات المعيارية في النقاش الأمني السياسي. كما أن التنظيم الذي اعتمده في معهده البرليني «للعلم العسكري العام» يمكن أن يخدم كنموذج «لبنك معلومات» أمني سياسي، لا ينصب عمله على خوض الحرب وإشاعة الاضطراب، بل على اتقاء الحرب وإدارة الأزمات واستراتيجيات الاستقرار الكوني.

بينما يجري في ألمانيا وأوروبا الحوار حول موضوعات داخلية مبددة للقوى، يفكرون في الولايات المتحدة أكثر من أي وقت مضى بمقولات الجيوسياسة الألمانية. وتعلم مدرسة إدموند ولش للقضايا الدولية بجامعة جورجتاون في واشنطن والمعاهد الأخرى، التي تعد ملاك القوة العالمية الأميركية القيادة الجيوسياسة المستنيرة، تدين بالكثير إلى شخصيات من أمثال «الأب ولش» واليوم، تمتلك أميركا أعظم قوة عسكرية عرفها التاريخ، بفضل تعاليم هذه الجيوسياسة، علما بأنه من غير الممكن في المدى المنظور قيام تحالف سياسي / عسكري يمكن أن يتحدى سيطرة أميركا العالمية. تنسج النخبة القيادية السياسية / العسكرية الأميركية ببعد نظر وحرص شبكة تحيط بالعالم، تضمن وصولها الامتيازي إلى مصادر الطاقة المسقبلية الحاسمة، عنيت حقول النفط في الشرقين الأدنى والاوسط، وحقول النفط والغاز في آسيا الوسطى.

لا زالت المنطقة الواقعة بين القاهرة وكراتشي، وبين عدن وعشق آباد، التي اعتبرها نيدرماير «مجالا انتقاليا»، تحتفظ بأهميتها بالنسبة إلى «الامبراطورية العالمية»، فمن المفهوم، إذن، أن يتخلق إحياء جيوسياسة ألمانية متأخر ومتردد في التعامل مع هذه المنطقة. وقد كان عنوان آخر حلقة بحث وطنية حول هذا الموضوع، نظمت يوم 8 آذار عام 2002 في «بيت الثقافات في برلين» هو «أرض ديناميكية ـ الجيوسياسة في آسيا الوسطى».

اهتمت الحلقة الوطنية، طبقا للمعنى الذي قصده نيدرماير عندما صاغ مقولة «الطباق الديناميكي»، بالتقويم النقدي لصور الأوضاع الجيوسياسة المعقدة، ذلك أن فاعلين مختلفين يشاركون في صراع القوة السياسي الدائر في آسيا الوسطى والشرقين الأدنى والاوسط، بينما تمكن محرضات اقتصادية وراء مصالح القوة الأميركية، وتحاول روسيا، كقوة تنحدر، الحفاظ حيثما أمكن على نفوذها التقليدي، وتتطلع الصين إلى كسب تأثير جديد وفتح مداخل إلى موارد تمس حاجتها إليها. ويعمل الفاعلون القثليميون: إيران وباكستان والهند، كمثيري اضطرابات محتملين، في حين انزوت أوروبا، التي تميل كاتحاد أوروبي إلى تنظيم نفسها في مجال كبير، جانبا وقبلت دور الكومبارس والمراقب.

مرتفعات جبلية قاتلة

انسحب الجيش السوفييتي، الذي أذله المقاتلون الإسلاميون، من جبال ووديان الهندكوش في المرحلة الأخيرة من الحرب الباردة[26]. لكن أفغانستان لم تعرف الهدوء حتى بعد انسحاب القوات السوفييتية، وظهر الطالبان عام 1994 لأول مرة في البلاد، وملأت الأصولية الإسلامية الفراغ الفكري والسياسي بعد خروج الجيش الأحمر واختفاء نظام الدمى الذي نصبته موسكو هناك. ومنذ هجومها الأخير في تموز / آب من عام 1998، تسيطر طالبان على البلاد كلها تقريبا.

غدا التنافس القديم بين قوة البر الأوراسية والقوة البحرية العالمية منظورا بصورة متزايدة بين موسكو وواشنطن خلال هذه السنوات أيضا، فبينما حاولت موسكو الحفاظ على نفوذها القديم في آسيا الوسطى المستقلة،

26. بعد الدخول السوفياتي إلى أفغانستان مباشرة، نشرت مجلة «الشبيجل» مقالة رائعة عن هانتيج، نيدرماير والعلاقات الأفغانية / الألمانية تحت عنوان «من أجل القيصر فيلهلم وصحرائه الملحية». العام 34، الأعداد 4 ـ 6، شباط 1980، ص 130 ـ 146.

سعت الولايات المتحدة الأميركية إلى تعزيز استقلال دول هذه المنطقة الأغنى بالطاقة، وحبذت المصالح السياسية وضعا أفغانيا يمكن أن يقدم طريقا بديلا يستخدم في تجارة وصادرات نفط وغاز جمهوريات آسيا الوسطى، في حين رغبت احتكارات الطاقة، التي استثمرت رساميلها في آسيا الوسطى، أو التي منّت نفسها، كشركة أونوكول، بجني الأرباح من مد أنابيب النفط عبر أفغانستان، بالاستقرار السياسي، بغض النظر عن نوع النظام القائم فيها.

هكذا، فرضت نفسها بدعم من المخابرات العسكرية الباكستانية وتغاض صامت من القوى الغربية حركة عسكرية / سياسية في أفغانستان، جندت مقاتليها في معسكرات اللاجئين شمال باكستان، حيث تم شحن أيتام الحرب، وكانوا في معظمهم فتية بلا وطن أو جذور، وأطفال يفتقرون إلى أي تأهيل أو أمل، إيديولوجيا وتدريبهم على الأسلحة النارية اليدوية، ومدافع الهاون وأجهزة الاتصال البسيطة، وإرسالهم إلى القتال. لم تواجه هؤلاء أية مقاومة جدية إلا على يد تحالف الشمال في أقصى شمال غرب البلاد. بعد انتصارهم، صارت أفغانستان مركز الأصولية الإسلامية، ومحور تهريب المخدرات، وقاعدة عمليات شبكة إرهاب دولية تغطي العالم.

أراد خبراء الشرق الألمان مثل ماكس فون أوبنهايم وفيرنر أوتو فون هانتيج وأوسكار فون نيدرماير قبل عام 1945 استخدام شخصيات وبرامج الإسلام الراديكالي من أجل أهدافهم الخاصة في الصراع ضد القوى البحرية الانجلوساكسونية. لكن الإسلام في طبعته الراديكالية والأصولية غدا اليوم خطرا جديا بالنسبة إلى أوروبا وألمانيا، بسبب البيئة العالمية المتغيرة عند مطالع القرن الحادي والعشرين.

لفت معاون نيدرماير كارل فون شوفينجن الأنظار إلى هذه الحقيقة في مرحلة مبكرة. وكان والده قد ترجم من الفارسية في جهد دام سنوات

الـ«سياسة نامة»، أعظم كتب فن إدارة الدولة الإسلامية، الذي صدر لأول مرة عام 1959 بالألمانية. وعندما أصدر كارل عام 1987 طبعة جديدة من كتاب أبيه، مزودة بمقدمة غنية بالمعلومات[27]، أشار بصراحة إلى ما اعتبره الجيوسياسي الفرنسي ألكسندر دو مارانش «انفجارا شيعيا» وقصد به زيادة التعصب الديني لدى مجموعات شعبية شيعية حل بها الفقر. وقد شخص قبل 14 عاما من 11 أيلول عام 2001 وجود حركة أصولية تشمل المجال الإسلامي بأسره، تنظم نفسها في جمعيات سرية، وستستخدم الإرهاب كسلاح، فهو ينتمي إلى هذا السياق نفسه، مثلما ينتمي إليه قتل الرئيس المصري انور السادات». أما في لبنان، حيث تقابل الأوروبيون لأول مرة خلال الحروب الصليبية مع الحشاشين، فقد نظم نفسه «إرهاب مخيف انتشر إلى أوروبا».

رغم الفاصل الزمني بين حياة نيدرماير والحاضر، تستطيع عناصر من تفكيره وسلوكه أن توضع في علاقة مع زماننا، كما يؤكد تحذير فون شوفينجن المبكر الغني بالمعرفة. لكن هذا الاستنتاج لا يؤكد فقط وجود خطوط استمرار معينة في السياسة الألمانية، بل يبين أيضا بوضوح انقطاعاتها. صحيح أن جنودا ألمانا يرابطون عام 2002 لأول مرة منذ بعثة أفغانستان عام 1915/1916، لكن مهمتهم ليست تحريض الأفغان على خوض الحرب ضد سيطرة البريطانيين في الهند، وإنما يتعلق الأمر بالأحرى بكونهم جزءا مندمجا من وحدة سلام، ستخضع لقيادة بريطانية لبعض الوقت.

تتحرك السياسة الألمانية بين كابول وبرلين وموسكو اليوم داخل نظم

27. تابع كارل شوفينجن: نظام الملك: كتاب فن إدارة الدولة سياسة نامه. ترجمه عن الفارسية وقدم له كارل إميل شابينجر فراي هر فون شوفينجن، أصدره مع مقدمه إبنه كارل شوفينجن، زيوريخ 1987.

أنساق تختلف أشد الاختلاف عن تلك التي عرفها زمن نيدرماير. هذا لا يستبعد أنها تلتقي دوما خطاه. عندما أرسلت ألمانيا في آب عام 2001 من جديد سفيرا إلى كابول، بعد مؤتمر الأمم المتحدة حول مستقبل أفغانستان قرب بون، لقي هناك ترحيبا وديا كصديق، لأن ذكرى العلاقات الوثيقة بين ألمانيا وأفغانستان كانت مستمرة، حتى أن قبر وصيف نيدرماير هانس ياكوب بقي قائما، صحيح أن المنطقة عرفت عملية بناء عشوائي على يد اللاجئين، ولكن عندما قام السفير الألماني الجديد بتحريات، تبين لدهشته أن القبر الذي ضمه فناء بيت داخلي صغير لم يمس خلال فوضى الحرب، وأن صفيحة برونزية صغيرة وسليمة تبرز من شاهد القبر الحجري، الذي يرتفع إلى قرابة متر، تذكر برفيق طريق نيدرماير. أما حديقة بابور، التي أمضى نيدرماير وهانتيج شتاء عام 1915/ 1916 فيها، فيعاد بناؤها اليوم بأموال جمهورية ألمانيا الاتحادية.

وكان نيدرماير قد عاد قبل قليل من جبال وصحارى أفغانستان إلى مجتمع انطبع بقيم ومثل الماضي. بعد أفول هذا العالم المعاش، حول طرق ودروب سياسية وعلمية خاصة به في زمن الاضطراب الكبير، لاعتقاده أنه سيجدها في ارتباط كثيف يضم الفعل السياسي والتفكير، ويتخطى «بشر الاختصاص» الذين تحدث عنهم ماكس فيبر، وتماهي الحداثة الإجباري، من هنا، أفصح طابع تراتبي متنوع الشرائح عن نفسه في فكره وعمله. وكان بوسعه أن يكون قاسيا على نفسه والآخرين، بما كان له من تكوين جيد وخبرة عالمية، وطموح وثبات على الهدف. كما أيقظ بقدرته على أن يكون صديقا وزميلا التعاطف، وأقام علاقات ولاء دامت مدى الحياة. وكان عوناً على الدوام، ومهتما بالبشر، مثلما كان في الوقت نفسه عديم الاكتراث وعنيفا. واستفز الكراهية وحتى الكره بعجرفته وانهماكه بذاته، ومن المعروف أن فون هانتيج لم يكن حرا من الحقد عليه، حين مات.

كان نيدرماير ميالا إلى السرية ويحب العمل التآمري. وكان نزّاعا في الوقت نفسه إلى القيام بتصرفات غير منضبطة، كما كان مغرورا. بما أنه كان خطي التفكير في تصوراته الرئيسة، فقد بدا في بعض الحالات انتهازيا وبين فينة وأخرى محتالا. أما موهبته التنظيمية الكبيرة وتمسكه الحماسي بالهدف فكان يقابلهما طموح هدام.

يبدو مسار حياته «كمسار مشرف» ناجح، بدأ في الفئة البرجوازية الوسطى لعصر ولي العهد البافاري، وبلغ نهايته في فئة الرايش الثالث الأكاديمية والعسكرية القيادية. ومع ذلك فإنه كان هامشيا وطرفيا وسطها، رغم أنه ظهر دوما كممثل نموذجي لنخبة الرايش الألماني. تلقى نيدرماير نبالته العسكرية بلغ انهيار الملكية، وكانت دعوته إلى التدريس في جامعة برلين، بغض النظر عن تأهيله العلمي، مستحيلة في عصر الأدارة الأكاديمية الكلاسيكية الذاتية. ومع أنه كان جنرالا وقائد فرقة ميدانية، فإنه افتقر إلى التأهيل الخاص بجنرال، رغم تجربته في الأركان خلال الحرب العالمية الأولى، ولولا تجنيد الاسرى السوفييت، لما صار آمر فرقة على الإطلاق.

طرق نيدرماير العالم دروبا جديدة من حيث المضمون والمنهج. واجتذبته مواضيع راهنة كالهجرة وتحول المناخ والتبدل الديموغرافي. لكنه أصر من جهة أخرى بطريقة تتسم بلمحافظة على أولوية كلية الفلسفة. وقد كان طيلة حياته معلما متمرسا، وبقي كرئيس عسكري نقطة الاتصال التي ربطت كثيرين من مرؤسيه الشبان. بيد أنه كان صعبا على الدوام بالنسبة إلى مرؤسيه والمساوين له في الرتبة.

جمع نيدرماير، كعابر حدود بين العسكرية والسياسة والعلم، الموهبة التنظيمية والانضباط الملزم إلى مرونة مقاتل حرب العصابات وعمل الأكاديمي المنهجي. ولم يستبعد حسه النامي بالواقع القفز الوهمي على الحقيقة. وكان يعتقد بقدرته على كبح جماح سياسة هتلر والنظام النازي

الأيديولوجية البواعث، وعلى دفعها في المنحى الصحيح، من خلال معرفته الجغرافية والعسكرية، وبالغ في تقدير تأثير الخبير على السياسة.

فهم نيدرماير بروحية كلاوزيفتز الحرب «كاستمرار للسياسة في ظل اختلاطها بوسائل أخرى». كانت الحرب في نظره سياسة، وكان خوض الحرب شكلا خاصا من العمل السياسي. من هنا، كان فكره سياسي وليس أخلاقي التعين، علما بأنه مارس «مفهوم السياسي» كما طوره راتسنهوفر وأضاف كارل شميت عليه تعريفا مجردا باعتباره علاقة «صديق ـ عدو» ملموسة: وكان على استعداد لاستخدام العنف من أجل بلوغ أهداف سياسية.

كان نيدرماير أحجية في نظر معاصريه. ذلك أنه غدا عديم الاكتراث بإيمانه المسيحي ككاثوليكي، بينما سحرته عوضا عن ذلك الأفكار الخطيرة والأديان الشرقية. واتفق الحنين إلى أبعاد آسيا المترامية الأطراف وجبالها مع حاجته إلى التحديات الجسدية والفكرية، التي تتخطى الوسطية: مما جعله يسعى دوما إلى أشد المخاطرات، ويتحرك في دائرة أعظم الأخطار. أين يمكن أن يجد هنا من ولدوا بعده نقاط استناد أو معايير يقوّمون بها حياته؟.

عندما تحدث توماس مان في تموز 1947 في زيوريخ عن «فلسفة نيتشه في ضوء تجاربنا»، ألقى نظرة على مجمل الكارثة الألمانية[28]. كان الجزء الرابع من زرادشت قد ظهر سنة 1885، عام ولادة نيدرماير، الذي اعتمد عليه في محاضراته بوصفه أحد من حرضوا فكره. كانت رحلة نيدرماير الفارسية الأولى قد قادته إلى خرسان، في ريف فارس الشمالي، حيث عاش زرادشت في حينه وتعلم. عرف توماس مان، مثل نيدرماير، زمن ولي العهد التشجيع الفكري وحظي بالاعتراف المجتمعي الأول، من هنا، ربما كانت أفكاره حول نيتشه تقدم لنا عونا توجيهيا يفيدنا في تأملنا النهائي لحياة نيدرماير.

28. حول محاضرته عن نيتشه عام 1947، انظر، توماس مان: حياة في صور، ص 416.

«لدينا صورة عادية نبيلة على قدر عظيم من الموهبة، بدا أنها تشق مسارا للنزاهة على مستوى يتسم بالعراقة. لولا هذا، وعلى هذه الأرضية، إلى أي اضطراب بلا دروب كانت ستندفع حياته!». ثم تحدث توماس مان، ونظره على نيتشه، عن «الارتقاء بذاته إلى ذرى مميتة». لا شك في أن هذه الصورة لا تعدو أن تكون وصفا فقيرا لأكثر فلاسفة نهاية القرن التاسع عشر أهمية. لكنه يصف بدقة كبيرة طلّاع الجبال والجيوسياسي نيدرماير، الذي ارتقى خلال حياته إلى أعلى فأعلى على الدوام، وسار في طرق جانبية مليئة جريئة، وبحث عن نقاط ارتكاز مغامرة، وساعده عبر مسافات جزئية خطيرة رفاق درب، لكنه بلغ بمفرده في النهاية وضعا لم يكن ثمة إنقاذ منه: «تأتي كلمة «تاه في الصعود»، التي تحولت إلى حكم أخلاقي وفكري، من لغة متسلقي جبال الألب، وتصف الوضع، الذي لا يعود فيه تقدم أو تراجع عند المرتفعات الصخرية العليا، ويعد المتسلق في عداد الضائعين».

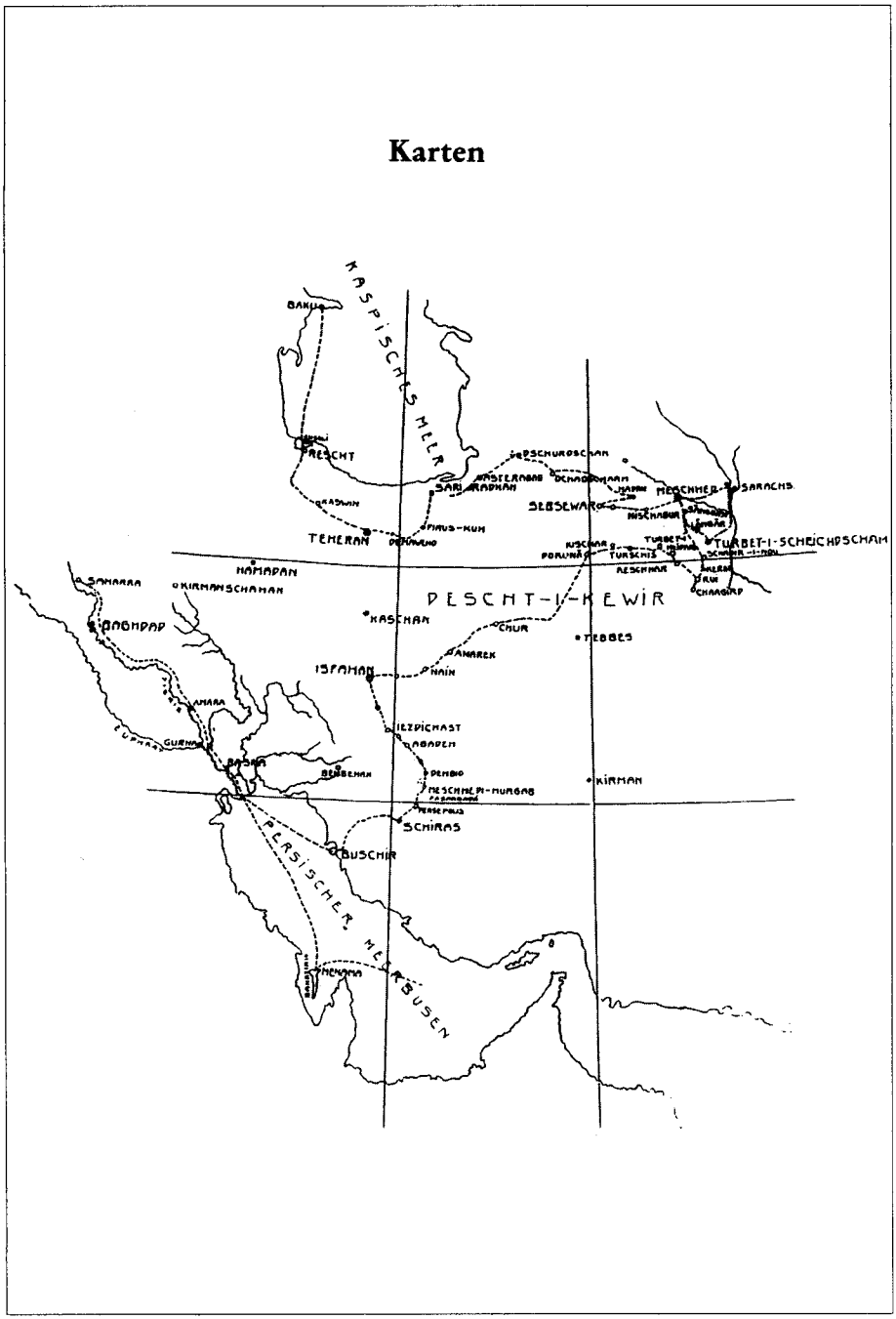

الخريطة الأولى: مسار رحلة نيدرماير مع إرنست ديتز عبر إيران بين 1912 و1914. من كتاب إرنست ديتز: تماثيل خرسانية. برلين 1918، ص26.

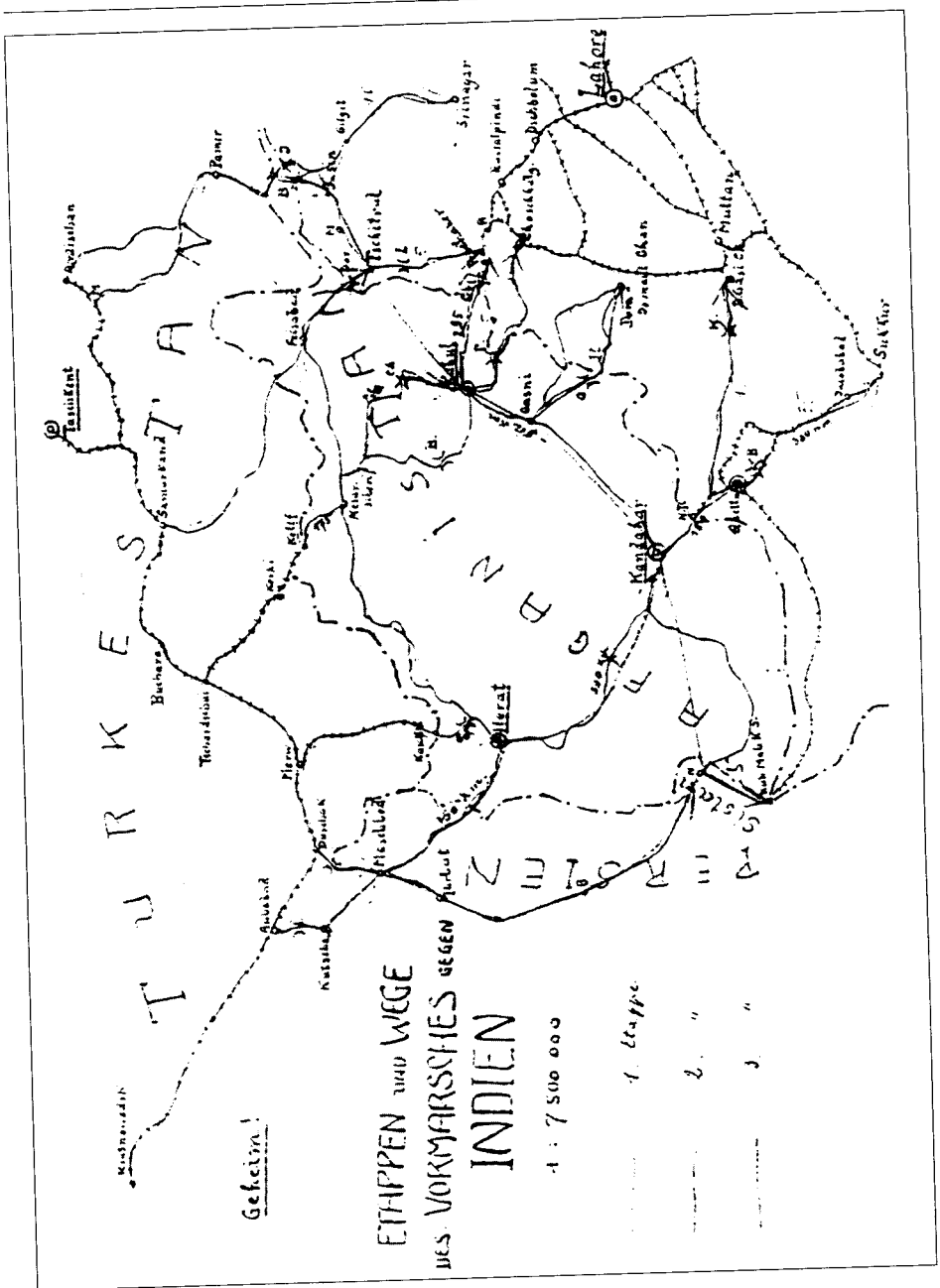

الخريطة الثانية: مراحل وطرق الزحف على الهند. من وثائق: أوسكار ريتر فون نيدرماير وخاصة محاضرته: تقويم الظروف العسكرية الجغرافية الخاصة بهجوم على الهند، التي ألقيت في شباط من عام 1921 في وزارة جيش الرايش (وكان نصها سريا) ووجدت في تركة جونتر فوجت، معهد أفغانستان السويسري/مكتبة أفغانستان. بوبندورف/سويسرا.

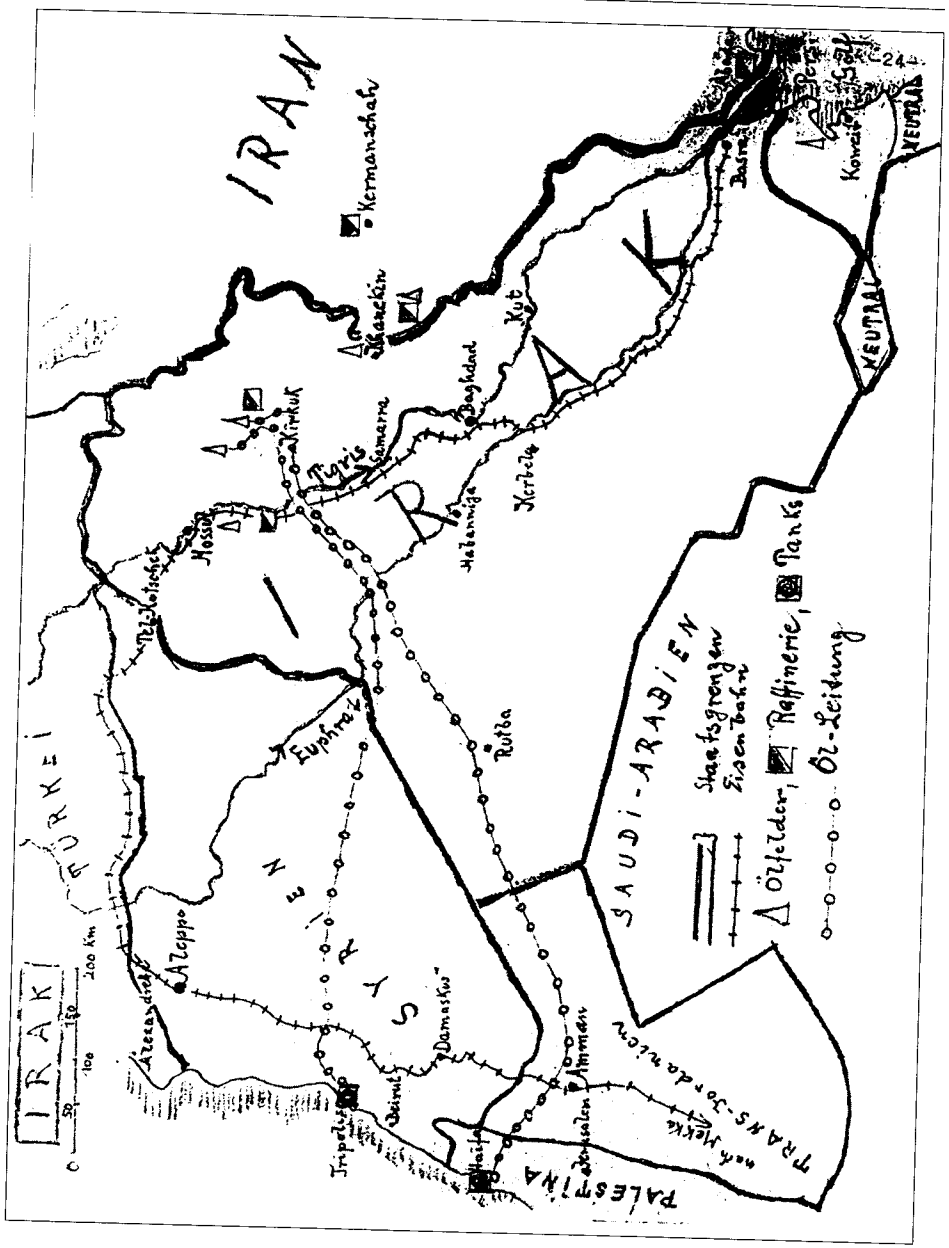

الخريطة الثالثة: العراق عام 1941: من وثائق استغلال ألمانيا لحركات العرب الأصليين خلال الحرب العالمية الثانية. تأليف الجنرال الطيار المتقاعد هيلموت فيلمي وجنرال المدفعية المتقاعد فالتر فارليمونت مع مقدمة للواء المتقاعد فرانس هالدر في الأرشيف القومي، كوليج بارك، رقم 207.

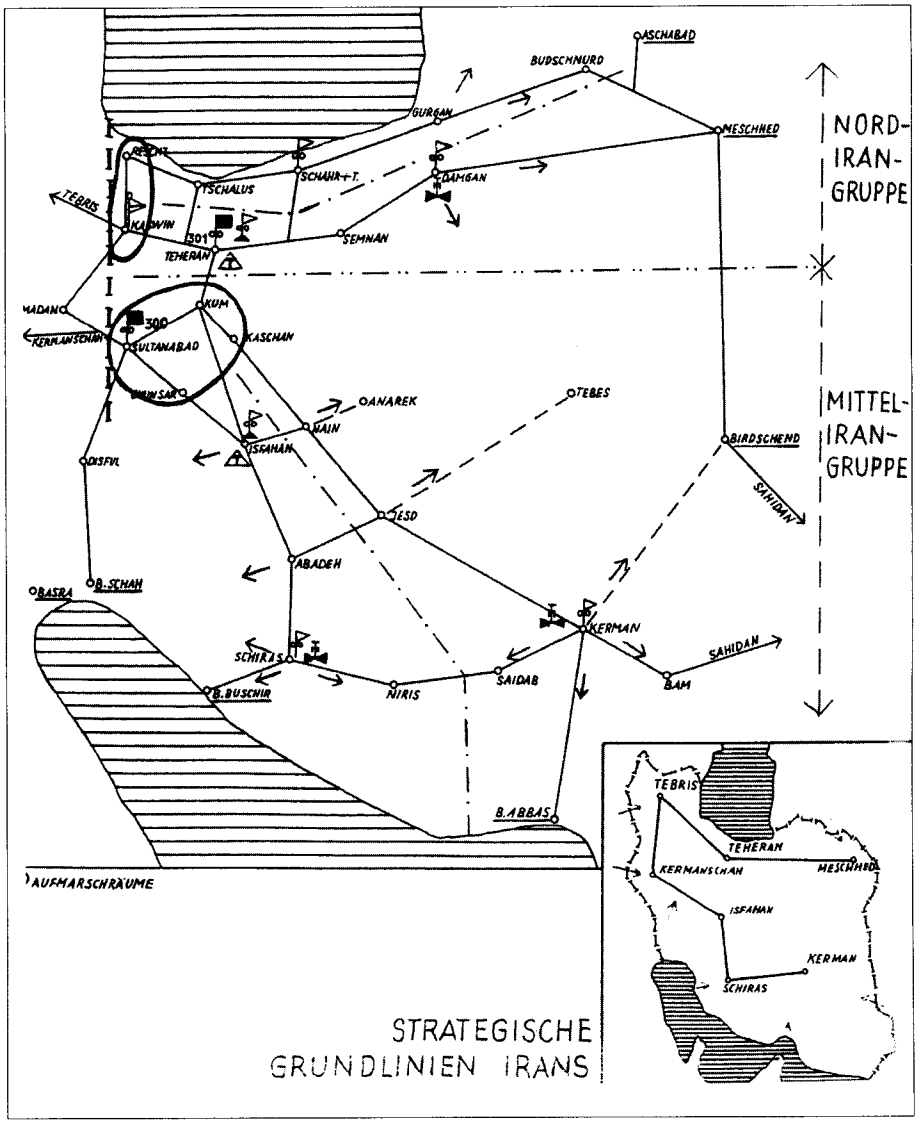

الخريطة الرابعة: وحدات خاصة في إيران، من وثائق: أوسكار ريتر فون نيدرماير: محاضرة حول استخدام الوحدات الخاصة في إيران، برلين 17 كانون الثاني 1942، في الأرشيف الاتحادي رقم 122/8.